الدين و الإنسان

محمد سعد زغلول سالم

الخميس ١١ يوليو ١٩٧٤

يُشكِّل الإيمانُ بالله مضمونَ الدين والمُكوِّنَ الجوهرى لكلِّ ما يفيضُ به عقلُ الإنسان من أفكار أو تصوُّرات كما يقدِّم إطارا لحدود ما يجِب وما يمكن لهذا العقل أن يفعله وما يجب عليه تجنُّبه فى هذا الوجود. وفى هذا السياق يتبين الخطأ المنطقى الجسيم الذى يقترفه من يفقد إيمانه بوجود الله. فحتى بإستبعاد حقيقة أن الإيجاد من العدم مستحيل علمياً وبالتالى مستحيل عقلياً ـ مما يعنى ضرورة وجود خالق لهذا الوجود ـ فإن التفكير العقلى والمنطقى المحايد يفترض تساوى الإحتمالين القائلين بوجود الله وبعدم وجوده .فإذا كان الله موجوداً فسوف يفقد المُلحد فرصة الفوز بما يعِدَهُ به الله من ثواب ونعيم طبقاً لمعطيات دينه الذى قد يختاره ، وإذا لم يكن هناك إله لهذا الوجود فلن يحصل على شىء من جرَّاء إعتقاده هذا ، فأيُّهما أفضل وأكثر منطقية إذن ؟ أن يؤمن الملحد بوجود الله أو ألاَّ يؤمن ؟.

وقد كان مفهوم الله ـ ومازال وسوف يظلُّ حتى النهاية ـ معضلة الإنسان الكُبْرى مِن الناحيتين العقلية والشعورية ، فصفات الله كما كشفها فى رسالاته إلى البشَر لا سبيلَ إلى إدراكها بما منحَه للعقل مِن خصائص قُصِدَ بها تهيئته للتعامُل معَ معالم ـ وليسَ معانى ـ هذا الكون. ورغم أنَّ هناك العديد من الظروف والأسباب التى ساهَمَت منذ بدأت حياة الإنسان على الأرض وحتى الآن فى تغيير مفهوم (الله) الفطرى الذى أودَعَه الله فى روح الإنسان منذ بدء مشيئة الخلق ، تارة بإضفاء صفاتٍ لا أصلَ لها إليه وتارة أخرى بإنتقاص بعض جوانبه وتارة ثالثة بإبتداع تصوُّرات مخالفة لكلِّ ما توحى به جوانبُ المفهوم الأصلى ، فإنَّ دراسة وتحليل هذه الظروف والأسباب التى أدَّت إلى هذا الضلال تكشف عن الدور الرئيسى للعقل فى هذا الزيغ والإنحراف عن الحقيقة كما بيَّنها الله.

فجوانب مفهوم (الله) فى الإسلام كما جاءَ بها القرآن الكريم تتضمَّن ست عقائد أساسية كانت هىَ مواضع عمل العقل البشرى ومواضع الزلل والخطأ فيه أيضاً لأنه إعمال للفكر فى غير موضعه وفى غير مجاله. فقد بيَّنَ القرآن الكريم فى وضوح لا يخالجه أىُّ شك أو غموض أنَّ الله موجود وأنَّ الله خالد وأنَّ الله واحِد وأنَّ الله خالق كلِّ شىء وأنَّ الله قادر على كلِّ شىء وأنَّ الله ليس كمثله شىء. وأوضحَ فى جلاء أنَّ هذه العقائد هى ما يجب على الإنسان الإيمان به والإلتزام به والعمل بمقتضاه للإهتداء إلى طريق الله ونيْل رضائه ، كما أوضحَ القرآنُ الكريم العديدَ من العقائد الأخرى الثانوية المترتبة على هذه العقائد الأساسية والتى يجب الإيمان بها أيضا مثل أنَّ الله عليم بكلِّ شىء وأنَّ الطاعة واجبة لله فقط دونَ سِواه وذلك إضافة إلى عقائد الإيمان بالغيب والقضاء والقدر

والقيامة والبعْث والحساب والجزاء والجنة والنار ، والإيمان بصفات الله التى وصفَ بها نفسَه فى أسمائه الحُسْنى ليقرِّب إلى عقل الإنسان وسيلة معرفته وطاعته وعبادته.

والواقع أنَّ النظرَ فى هذه العقائد ودراسة ما لحقها من إنتقاص أو إضافة أو تغيير أو تبديل يستطيع أن يفسِّر الجزءَ الأكبر من تاريخ تطوُّر الفِرَق الدينية والمذاهب الفكرية والتصوُّرات الفلسفية لدَى الجماعات والشعوب المختلفة منذ البدايات الأولى للبشرية وحتى عصرنا الحاضر. فالإختلاف حولَ هذه العقائد يفسِّر لنا ما نراه اليوم من أديان مختلفة وعديدة زادت كثرتها عن الحدود المعقولة والمفهومة وذلك بسبب القدرات العقلية المتفاوتة والحالات النفسية المتباينة والدوافع الفعلية الحقيقية وأيضا ما كانَ يتراءى لكلٍّ من يحاول فهمها أو تفسيرها من رؤى أو أوهام.

ففى عصرنا الحاضر ـ مثلما كانَ الأمرُ دائما على مرِّ العصور ـ ينقسم البشَر إلى طائفتين أساسيتين فيما يخصُّ الإيمان والإعتقاد ، فهناك الملحدون الذين لا يؤمنون بوجود الله ويعتقدون بذاتية الخلق بناءاً على مفهوم الصدفة وبإستمرار الحياة إستنادا إلى قوانين الطبيعة وبتبايُن الأحياء طبقاً لقوانين التطور والإنتخاب الطبيعى ، وهناك المؤمنون بوجود قوة خالقة لهذا الوجود مسئولة عن كلِّ ما فيه منذ البداية حتى النهاية. وينقسم المؤمنون بدورهم إلى العديد من الفرق والمذاهب والجماعات يمكننا تقسيمهم أيضا مثلما هو واقع الحال الآن إلى ثلاث فرق أساسية تنقسم كلُّ فرقةٍ بدورها إلى العديد من المذاهِب التى تختلف فيما بينها طبقا لتصوُّراتها عن مفاهيم القوة الخالقة والتى يتبع كل مذهب منها جماعة من البشر .فالمؤمنون بوجود خالق لهذا الوجود ينقسمون إلى المُوَحِّدين الذين يعتقدون فى وحدانية الخالق والمعَدِّدين الذين يعتقدون بتعدُّد الخالقين والمشركين الذين يشركون مع الخالق أفرادا من البشر يُضْفون عليهم صفاتٍ تؤهلهم للمشاركة مع الخالق فى تسيير أمور الخلق فى الكون.

ورغم إشتراك المُوَحِّدين فى الإيمان بوجود خالق واحد إلاَّ أنهم يختلفون فى تصوُّراتهم عن هذا الخالق وعن طبيعته إختلافا كبيرا يمكننا فى ضوئه تقسيمهم إلى فرقتين أساسيتين هما الموحِّدون الخُلص الذين لا يشوبَ تصورهَم عن الخالق أىُّ شائبة فيما يخصُّ وحدانيته وفرديته وقدرته وهؤلاء هم المسلمون إضافةً إلى بعض اليهود فى فتراتٍ معينة من تاريخهم ، والموحِّدون الذين يُلحقون بهذه الوحدانية تصوُّراتٍ زائدة تنتقص منها ومن فرديتها ومن قدرتها وتقترب بهم إلى صفوف المشركين وهؤلاء هم المسيحيون والشيعة والصوفيون.

وتكشف الدراسة المتأنية لتاريخ هذه الفرق الثلاث الأخيرة عن إستثناءاتٍ عديدة فيما يخصُّ عقائدها الدينية وكيفية تطور هذه العقائد حتى زمننا الحاضر .ففى البدايات الأولى للمسيحية لم يكن لمفهوم عقيدة التثليث وجود فى أذهان المسيحيين الأوائل الذين عاصروا ونقلوا أقوال سيدنا عيسى عليه السلام التى تقطع بوحدانية الله الذى أرسله وبعدم وجود ربٍ غيرِه وهى الأقوال التى ظلت محفوظة فى الأناجيل القانونية الأربعة التى كُتبَت بعد وفاته عليه السلام بعقود طويلة (٣٥ عاماً إلى ١٠٥ أعوام) حيث لم يبدأ الترويج لهذه العقيدة إلا فى بعض رسائل (بولس) إلى أهل بعض المدن والقرى حينذاك. وقد لا أكون مُغالياً فى القول بأن ترويج (بولس) (اليهودى) لهذه العقيدة قد

يكون الأسلوب الذى لجأ إليه أحبارُ اليهود كأمْضَى سلاح لنقض وهدم الدين الجديد الناشىء وذلك لإدراكهم أنَّ عقيدة تأليه البشر بالتثنية أو التثليث أو التعدُّد إن هى إلاَّ عقيدة وثنية باطلة لاتتوافق مع الفطرة الإنسانية السليمة التى ترى التوحيد فى كل مظاهر هذا الكون والتى أودعها الله فى كل نفسٍ شاءَ له خَلْقَها. وهو نفس الأسلوب الذى لجأوا إليه بواسطة اليهودى (عبدالله إبن سبأ) الذى بدأ الترويج لعقيدة تأليه سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وإستمر هو وأتباعه فى نشرها والتدليل عليها إلى أن نجحوا فى نشر ضلالاتها الى أدت إلى إنحراف طائفة الشيعة عن جادة الصواب ونشأة عقائدهم الحالية التى تضُم خليطاً متبايناً من الضلالات تشمل تأليه سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وإشراك الأئمة مع الله فى تدبير شئون الخلق وتمييز الشيعة عن بقية البشر .. الخ.

وقد أفرزت ضلالاتُ الشيعة مفاهيمَ عقيدية منحرفة عن عقائد الإسلام الصحيحة لأسبابٍ كثيرة أهمها لجوئهم إلى التأويل الفاسد للقرآن الكريم وكذبهم على أئمتهم بنسبة الكثير من هذه المفاهيم إليهم وذلك لعدم وجود أى سندٍ لهذه الضلالات فى القرآن الكريم. ويمثل مفهوم المهدى المنتظر الغائب منذ ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً أحد هذه المفاهيم التى أدت إلى ظهور العديد من الدَعوات الضالة التى مالبثت أن شكلت مذاهب منحرفة تطورت فى بعض أوقاتها وحتى يومنا هذا إلى عقائد ضالة يؤمن بها الكثير من البشر مثل البابية والبهائية والقاديانية .. الخ. كما شكل مفهوم إشراك الأئمة مع الله فى تدبير شئون الخلق ونسبة الكثير من القدرات التى إختص الله بها نفسه إليهم ــ كمعرفة الغيب ـ باباً واسعاً للزيغ والضلال الذى لحق بالتصوف والصوفية الذين إستندوا إلى هذا المفهوم فى إسباغ العديد من القدرات والصفات على بشرٍ أمثالهم قاموا بتقسيمهم إلى غوث وأقطاب وأبدال .. الخ بغير سندٍ من القرآن الكريم أو الحديث الصحيح مما تسبب فى إنحراف الكثير منهم وإنجرافهم إلى حافة الشرك والضلال.

ويقتضى الإنصاف فى هذا الشأن الإشارة إلى أن التصوُّف كعبادة يختلف تماماً عن التصوُّف كعقيدة. فالتصوُّف كعبادة تحثُّ على التواضُع والزُهد والإستعداد دَوْماً لساعة الرحيل حال وسلوك مطلوب من كل مسلم أمرنا به الله فى العديد من آيات القرآن الكريم وحثنا عليه الرسول ﷺ فيما لا يعد أو يُحصى من الأحاديث الشريفة الصحيحة. أما التصوف كعقيدة فهو بدعة منكورة لا أصلَ لها أو سند فى مصادر الإسلام أدت إلى ما نشهده اليوم من إنحرافاتٍ وضلالات عديدة ممن ينتسبون إليها من الصوفيين نشأت كلُها وتسربت إليهم بسبب مفاهيم الشيعة الضالة فى تقديس الأئمة ونسبة قدرات الله إليهم بغير سند أو دليل.

ويبعثُ التشابُه الذى يصل أحياناً إلى حد التماثُل بين العقائد الضالة للكثير من الطوائف الدينية المختلفة فى الذهن المتأمل لها العديدَ من التساؤلات عن أسباب هذا التشابُه وعن كيفية تطوُّر المفهوم العقلى الأول للدين ــ ولبقية المفاهيم المنبثقة منه والمترتبة عليه ــ لكل جماعةٍ من هذه الجماعات وعن أثر العوامل الزمانية والمكانية والإجتماعية والسياسية التى تحكم حياة وسلوك هذه الجماعات فى صياغة وتشكيل التصوُّرات النهائية الحالية لهذه العقائد.

فعلى سبيل المثال ـ وفى إجمالٍ قبلَ تفصيل ـ يثيرُ التشابهُ بين بعض عقائد الإيزيدية ومثيلاتها من عقائد الشيعة العديدَ من التساؤلات عن المصدر الأصلى لهذه العقائد وعن كيفية إعتناق أتباع هاتين الطائفتين لهذه العقائد المتماثلة رغم التباعُد الواضح بينهم فى باقى عقائدهم. فالإيزيدية يعتقدون بأفضليتهم فى الخلق مما يسمونه (الخميرة المقدسة) والتى إختلفوا فى تفسيرها أو تحديدها تماماً. فبعضهم يقول إنها المادة التى خُلِقَ منها آدم (ع) قبلَ خلق حواء وإتصاله بها وميلاد بقية البشر. وبعضهم يقول إنها مادة آدم (ع) نفسه ولكن فى أول أدوار خلقه الأولى والتى سوف تتكرر سبع مرات يحيا البشر الآن فى الدورة الثالثة منها. وآخرون يلمحون ضمناً إلى إنها من (الخميرة الطاهرة) من أرض لالش المقدسة منذ الأزل والتى إختارها الله لبدء الخلق والتى بدأ (طاؤوس ملك) منها ومازال يدير جميعَ شئون هذا الكون. وعلى نفس هذا المنوال يعتقد الشيعة بأفضليتهم فى الخلق من طينةٍ مختلفة عن الطينة التى خلق منها بقية البشر والتى إختارها الله من أرض كربلاء المقدسة وهى ما تعرف بعقيدة الطينة.

وبسبب ضعف الإيزيديين وقلة عددهم مقارنةً بأتباع بقية الديانات التى يحيون بينهم فقد لجأوا إلى ستر وإخفاء عقيدتهم فى الخلق من آدم الأول أو آدم الطاهر أو من الخميرة الطاهرة المقدسة وذلك خوفاً من غضب أتباع الديانات المجاورة ولم يجاهروا بها وهو سلوك يماثل تماماً سلوك الشيعة فيما يختص بعقيدتهم فى (التقية) أىْ ستر وكتمان حقيقة عقائدهم وهو السلوك الذى يلجأون إليه حال وجودهم بين أكثرية غالبة من المسلمين على وجه التحديد وذلك خوفاً من ردود أفعالهم تجاهَ هذه المعتقدات والأفكار التى تخالف عقيدة المساواة بين البشر جميعاً فى الخلق والإيجاد والتى أوضحها القرآن الكريم دون لبس أو غموض.

وبالرغم مما يقول به بعضُ الإيزيدية من الأصل الإيزيدى لسيدنا إبراهيم (ع) وإيمانهم بمعظم تفاصيل قصة حياته ودعوته والتى تتشابه بل وتتطابق مع ما جاء بشأنها فى القرآن الكريم إلا أن هذا القول لا يؤيده دليل واضح. ومن المرجح أن عقيدة الأفضلية فى الخلق التى يعتقدها كل من الإيزيدية والشيعة قد تسربت إليهم من عقيدة الشعب المختار التى يؤمن بها اليهود وذلك إستناداً إلى تبلور هذه العقيدة لدى اليهود قبل ظهورها بين الأيزيدية أو الشيعة بأزمان عديدة. فبالرغم مما يقول به الإيزيدية من وجودهم كطائفة دينية ذات عقيدة توحيدية واضحة قبل ظهور اليهود بزمن طويل إلا أنه ليس معروفاً حتى الآن طبيعة أو حقيقة عقائدهم فى ذلك الزمان البعيد نظراً لحرص قادتهم الدينيين منذئذٍ وحتى الآن على عدم تدوين عقائدهم كتابةً إكتفاءاً بتناقلها شفاهةً بينهم من جيل إلى الذى يليه وهو الأمر الذى من شأنه أن يؤدى إلى تحريف أو نسيان أو ضياع العديد من تفاصيل هذه العقائد.

وقد يكون لعقيدة التربة المقدسة أو الخميرة الطاهرة أثر فى بعض العقائد أو الممارسات التعبدية بين بعض الأفراد من طائفة الإيزيدية إستناداً إلى إحساسهم بالتميُّز والإختلاف عن بقية الخلق وضرورة أن ينهجوا نهجاً أسْمَى شأناً يخالف نهجهم. فرتبة (بابا جاويش) الدينية لديهم ــ والتى تتعدد التفسيرات لبدء ظهورها أو طبيعتها أو أهميتها العقائدية ــ تستلزم إتباع سلوك مثيل بالرهبنة المسيحية والبوذية يتضمن تحريم أو تجنب الزواج وإتباع نمط حياة

يتسم بالزهد والبساطة والإعراض عن مباهج وملذات الحياة التى يُقْدِم عليها بقيةُ الخلق بإفراط دون كابحٍ لجماحهم فى هذا الشأن.

